شموئيل أمير*

عن الأيديولوجيا الصهيونية:

بين الاستعمار الأوروبي وما بعد الصهيونية

ترفض الثقافة السياسية الاسرائيلية مصطلحات ما بعد الصهيونية ومناهضة الصهيونية واللاصهيونية. ولا تزال الصهيونية التي نعرفها القلعة المهيمنة في الخطاب السياسي في اسرائيل، أو على الأدق الايديولوجيا شبه الرسمية للدولة. هناك من ينظر إلى الصهيونية ككلمة مرادفة للوطنية، وللتأكيد على ذلك نضرب مثلاً من الماضي: فقد عبر نتنياهو بيلد واوري افنيري وآخرون من اعضاء المجلس الاسرائيلي – الفلسطيني للسلام، عن تأييدهم لاقامة دولة فلسطينية إلى جانب دولة اسرائيل، وعندما اتهم هؤلاء بانهم غير صهيونيين، قاموا برفع دعوى قضائية بالقذف والتشهير ضد من اتهمهم بذلك.

وتشير كثرة المصطلحات التي أُبتكرت لغرض انتقاد الصهيونية إلى قوة ومناعة الايديولوجيا الصهيونية. في السنوات الأخيرة شكك باحثون ومفكرون بالفرضيات الأساسية للصهيونية من حيث المضمون والتاريخ، وهو ما يمكن اعتباره جهداً نظرياً يتسم بالجرأة. ولكن ومن أجل فهم ميدان الصراع الأيديولوجي القائم، يتعين علينا استعراض خلفية تطور هذه «القلعة» السياسية والايديولوجية المتمثلة بالصهيونية.

الصهيونية كأيديولوجية أوروبية

بصورة عامة نحن نعرف نوعين من القوميات، النوع الأول انبثق في الثورة الفرنسية، ويعتمد على البعد الاقليمي، ومؤداه ان جميع الناس القاطنين في منطقة معينة ينتمون إنتماء كاملاً للأمة، بغض النظر عن العرق او الدين او الطبقة او الجنس. وهم جميعاً مواطنون متساوون أمام القانون. هذه القومية

* باحث وكاتب في الشؤون الفكرية الصهيونية

والبحث الموضوعي في عملية الهجرة اليهودية إلى أرض اسرائيل منذ تأسيس الحركة الصهيونية يشير إلى رغبة اليهود بأغلبيتهم المطلقة بالهجرة إلى الولايات المتحدة وإلى دول غربية نامية. وذلك على عكس ما قيل في بيان استقلال دولة اسرائيل، حيث قيل ان اليهود توجهوا إلى أرض اسرائيل فقط عندما لم يكن أمامهم خيار آخر. وبالاضافة إلى ذلك، لم تمنع الحركة الصهيونية إبادة يهود اوروبا.

المحتوية او المتضمنة (INCLUSIVE)، احتوت على سبيل المثال الجالية اليهودية في فرنسا، في ذلك الوقت، داخل الأمة الفرنسية من دون اية مشكلات او تعقيدات، وقد أضحت هذه القومية الاقليمية العلمانية نموذجاً لكل الحركات القومية التقدمية بلا استثناء. وكمثال يمكن الاشارة إلى تعريف آيجز احمد لماهية دولة الهند حالياً، بقوله انها: أمة واحدة مكونة من مجموعات عرقية كثيرة تنطق بأكثر من ٢٠٠ لغة (بما في ذلك الانكليزية). النوع الثاني من القوميات يعتمد على المكون الإثني، كما بين هردر (Herdar) والذي أشار إلى ان الانتماء إلى أمة ينبع من مصدر أو عامل إثني، ثقافي ولغوي مشترك.

هذا التوجه، المغلف بالرومانسية الألمانية، يقع في صلب وجهة النظر الصهيونية، ويشكل نوعاً من أنواع القومية المقلصة او الحصرية. (EXCLUSIVE). وهذا التوجه مضاد، او معاكس للقومية العلمانية المدنية.. وقد وصف هينز كوهن الرومانسية الألمانية بالعبارة التالية: مثلن الرومانسيون الماضي القومي بمبادئ الثورة الفرنسية (ثورة ١٧٨٩) وبتعظيم النزعة التفاؤلية في عصر التنوير.

باستطاعتنا ان نجد وصفاً دقيقاً أو موفقاً للقومية من النوع الثاني في وثيقة «إعلان استقلال دولة اسرائيل» والتي جاء فيها: «أرض اسرائيل هي مهد الشعب اليهودي، فيها تكونت شخصيته الروحية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة مستقلة، وخلق قيماً حضارية ذات مغزى قومي وانساني جامع وأعطى للعالم كتاب الكتب الخالد. بعد ان نُفي عنوة من بلاده حافظ الشعب اليهودي على ايمانه بها طيلة مدة شتاته ولم يكف عن الصلاة أو يفقد الأمل بعودته اليها واستعادة حريته السياسية فيها.

سعى اليهود جيلاً تلو جيل مدفوعين بهذه العلاقة التاريخية والتقليدية إلى اعادة ترسيخ أقدامهم في وطنهم القديم، وعادت جماهير منهم خلال العقود الأخيرة.. جاءوا اليها رواداً ومدافعين، فجعلوا الصحاري تتفتح وأحيوا اللغة العبرية وبنوا المدن والقرى، وأوجدوا مجتمعاً نامياً يسيطر على اقتصاده الخاص وثقافته.. مجتمعاً يحب السلام لكنه يعرف كيف يدافع عن نفسه، وقد جلب نعمة التقدم إلى جميع سكان البلاد وهو يطمح إلى تأسيس أُمة مستقلة».

انه نموذج مألوف حول الطريقة التي يتم بها إضفاء الغموض على الماضي البعيد، وهو نموذج منافٍ للتاريخ حسب الوقائع، ورومانسي وفق التحليل، وهذا يذكر بالمقولة الشهيرة لرونان وهي ان «تزوير التاريخ جزء من تكوين الأمة». هذه المقولة تنطبق إلى حد بعيد على «إعلان استقلال اسرائيل» الذي يتزامن بشكل أو بآخر مع ظهور دولة اسرائيل على مسرح التاريخ المعاصر.

وبالاضافة إلى ذلك، فإن المكون العرقي – الرومانسي في الصهيونية لا يعتبر رغم مركزيته المكون الأكثر أهمية، ففكرة الصهيونية لم يكن بامكانها أن تظهر سوى في العصر الامبراطوري، حسب وصف المؤرخ هوبساوم للفترة الممتدة من ١٨٧٥– ١٩١٤، ولا يمكن تجاهل حقيقة ان تجسيد المشروع الصهيوني ارتبط بالبعد الاستعماري الامبريالي القائم في الايديولوجية الصهيونية.

وينظر إلى العنصرية على انها البعد الايديولوجي للامبريالية، وقد شكلت العنصرية المعاصرة أحد أهم المبررات للاحتلال والاستغلال والاضطهاد للجماهير في الامبراطوريات الاوروبية الحديثة المترامية الاطراف. الفترة من عام (١٨٨٥–

١٩١٤) التي شكلت فترة الذروة في التوسع الامبريالي، هيمت نظريات النقاء العرقي لـ«يوستون ستيورات شتمبرلين» وجوزيف ارتورده غفيانو جنباً إلى جنب مع الداروينية الاجتماعية. وطبقاً لهذه التوجهات فقد اعتبر غير الاوروبيين من الفئات المتخلفة اجتماعياً وثقافياً، وباختصار جديرة بالخضوع للسيطرة.

لقد كانت الحركة الصهيونية، التي دعت مؤيديها إلى ترك اوروبا والهجرة إلى أرض اسرائيل، مهيئة لتمثل الايديولوجية الامبريالية – العنصرية المتجاهلة لحقوق السكان المحليين وتطلعاتهم، ولو استوطن الفرنسيون فلسطين على سبيل المثال لكان من الصعب جداً دعوة اليهود للاستيطان فيها بغية اقامة دولة جديدة على اراضيها.

لكن الدعوة السافرة المنسوبة للكاتب يسرائيل زنغويل «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» لم تكن مبشرة بالسوء، أما اليوم وفي واقع وجود ملايين اللاجئين الفلسطينيين فان الفكرة تبدو أشبه بكابوس حقيقي.

في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) أجرى الكاتب الصهيوني ماكس نورداو مقارنة بين اليهود والاوروبيين، وبين اليهود والشعوب الأصلية وقال: «ان معظم اليهود قوم من المتسولين الملاعين، وهم أكثر حنكة ودهاء من الاوروبيين ناهيكم عن الآسيويين والأفارقة المحتضرين».

ثيودور هيرتسل اعتبر ان دولة اليهود هي «جزء من القلعة الاوروبية في مواجهة آسيا، وحصن حضاري في مواجهة الهمجية».

يجب التأكيد مراراً وتكراراً على ان الصهيونية هي حركة معاصرة، فهي لم تنبثق عن تقاليد بائدة او مقدسة، بل انبعثت عن تقاليد مبتكرة ونمت جنباً إلى جنب مع حركات قومية أخرى في اوروبا وبضمنها حركات لشعوب اعتبرت حتى ذلك الوقت غير تاريخية مثل الفينلنديين والسلوفاك والمقدونيين والباسك والولزيين.

وخلافاً للمتحدثين الرسميين باسم الايديولوجية الصهيونية اليوم فقد اعترف نورداو بالعلاقة بين الصهيونية والحركات القومية في ذلك الوقت وفي هذا المجال كتب في العام ١٩٠٤ يقول: «بعثت الصهيونية الجديدة من دوافع يهودية داخلية، ومن تأثر وحماس المثقفين اليهود لتاريخ الشعب (اليهودي) وأبطاله (...) أما العامل الأهم في تشكيل الصهيونية فيعود إلى باعثين خارجيين: الاول، مبدأ القومية الذي ساد اوروبا في النصف الاول من القرن الماضي من ناحية فكرية وعاطفية – وهو المبدأ الذي رسم السياسات الدولية. أما الثاني، فهو معاداة السامية، التي وجهت بشكل أو بآخر ضد اليهود عموماً.

اذاً، لم تكن هناك أمة يهودية تنتظر مثل الحسناء النائمة قُبلة أميرها الصهيوني لتصحو بعد ألفي عام من النوم، وعليه، كانت الحركة الصهيونية ظاهرة جديدة كلياً كباقي الحركات القومية الأخرى، ووفق وجهات نظر كثيرة فقد تخلت الصهيونية عن التقاليد اليهودية القديمة وبالتالي فقد كانت جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الاوروبية، وعكست تماماً التيارات السائدة فيها. وبالاضافة إلى ذلك، ارتبطت صورة وتطلعات الصهيونية ارتباطاً وثيقاً بثقافة وصورة اوروبا الدينية – القومية – الامبريالية في القرن التاسع عشر.

لا مجال هنا للإسهاب في الحديث عن هذا الموضوع، لكن لفهم الجذور الاوروبية – خاصة الالمانية– للقومية اليهودية، علينا التعرف قليلاً على العلاقة بين الصهيونية وبين الثقافة الاوروبية، حيث كتب المؤرخ اليهودي الأميركي المعروف سالو برون، الذي ولد وتعلم في النمسا قبل الحرب العالمية الاولى، عن انجذاب اليهود للروح الحماسية المسيحانية لدى القومية المعاصرة، ويمكن القول ان الاندفاع المسيحي يشكل ميزة نموذجية تنطبق على اليهود الذين تعرضوا لمعاناة تاريخية. ولعب الاندفاع المسيحي دوراً مهماً في السياق الخاص بالقومية، حيث لخص برون هذا الاندفاع بالحصرية والايمان العميق بقرب يوم القيامة في عهد التحقق النهائي للقومية المعاصرة.

وربط برون الاندفاع المسيحي بالأديان التوحيدية القديمة.

ووصف الأديب البولندي آدم ميسفوبيتش الشعب البولندي انه تقمص شخصية المسيح المعذب. وكتب ماكس ان «كروميل والشعب الانكليزي استعاروا من التاناخ لغته وابداعاته واوهامه من أجل ثوراتهم البرجوازية». وقد طاف المبشرون الاميركيون

أرجاء العالم الجديد يروجون من أجل تأسيس القدس الجديدة. أما تولستوي فقد شبه في مؤلفه «الحرب والسلام» موسكو بالقدس. وألبس فيردي الوطنيين الايطاليين بلباس العبرانيين القدماء وهم يبكون في منفاهم في بابل على «فراق ارض اسرائيل» نورداو كتب ان الصهيونية في جزء منها فقط انبعثت من خلال دوافع يهودية، على الرغم من تجاهله (أي نورداو) للدور الحاسم الذي لعبته الثقافة الاوروبية في ظهور الحركة الصهيونية. ومن المعروف ان مؤسسي الصهيونية جاءوا من التيارات اليهودية المتنورة وليس من التيار الديني الذي انضم جزء صغير جداً منه إلى الحركة بعد تأسيسها. ان الصهيونية في جوهرها هي ايديولوجية اوروبية، بدليل انه لم تنبثق عن اليهودية الشرقية ذات الثقافة والتاريخ العريقين أية حركة قومية على الاطلاق. ساهمت اوروبا القرن الـ١٩ في ظهور الفكرة الصهيونية من خلال لفت انتباه الاوروبيين عموماً واليهود الاوروبيين بشكل خاص الى فلسطين خاصة وان سيرة فتوحات وحملات نابليون أثارت إهتماماً امبريالياً كبيراً، وساعدت في قيام رحلات وبحوث قام بها مارتن وفلاوفر شطوبريان ومارك توين ومجموعات كثيرة، حيث كانت اهدافها متنوعة. وفي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أصبح ميناء يافا هدفاً طبيعياً، وأسست فيها وكالات سياحة وسفر بعد عشرة أعوام بهدف تنسيق الرحلات إلى الأراضي المقدسة. وعلى ضوء الموقف العلمي الذي ساد أوروبا في ذلك الوقت ازدادت الوفود الأثرية خاصة من اكبر دولة امبريالية (بريطانيا) التي اهتم قادتها كثيراً بالمكتشفات الأثرية الجديدة. وفي هذا المجال كتب نيل سيلبرمان في كتابه ان الصحراء التوراتية تحولت إلى مركز اهتمام غربي «God and country pigging for» من جانبي المحيط، أما ألمانيا وبريطانيا فقد تعاطفت من ناحية دينية وامبريالية مع الاراضي المقدسة واعتبرت «أرض فلسطين» أرضاً لليهود.

ويبدو ان التدخل الاوروبي في أرض اسرائيل خلق انطباعاً عميقاً عند المثقفين اليهود من ذوي التوجهات القومية، وفجأة تحول الحلم إلى حقيقة قابلة للتحقق، وتحولت أرض اسرائيل من مجرد ذكريات تاريخية إلى واقع عملي، وخرجت من اطار العقائد ووضعت على جدول الأعمال اليومي، باختصار، اعتبرت ارض اسرائيل اختراعاً جديداً وعادت تحمل اسم صهيون.

ومن دون التطورات المذكورة من الصعب وصف كيف يمكن لفلسطين ان تتحول لمشروع استيطاني يهودي. وقبل ذلك انشغل البارون هيرش ويهود كرماء آخرون في البحث عن حلول لمساعدة اخوانهم التعساء واعتبروا ان الارجنتين ودول اميركا الجنوبية مكاناً مناسباً لهم. ومن النظرة الأولى لم تلائمهم فلسطين. حتى ان صهيونيين بارزين مثل هيرتسل ونورداو فتشوا في خرائط العالم على مكان مناسب واشاروا إلى أوغندا كمكان مفضل. وعلى أية حال كانت هذه الخيارات اكثر ضبابية مقابل صورة أرض اسرائيل المرصعة بأماكن تاريخية – توراتية مصورة، كما وصفها المتجولون والسياح والباحثون الاوروبيون. وعلى اية حال، زودت القوميات الاوروبية اليهود بنسبة غير بسيطة من الافكار والتطلعات، ومنحتهم المكان لتحقيق هذا الحلم.

وهنا أضيف ملاحظتين هما: الاولى، وصف الايديولوجية الصهيونية هنا تم من وجهة نظر تقول ان الصهيونية الايديولوجية تسيطر على البلاد اليوم. وفي نهاية القرن التاسع عشر وخلال فترة طويلة كانت الصهيونية تياراً صغيراً في أوساط يهود اوروبا الشرقية وغير موجودة مطلقاً في اوروبا الغربية. ومكانتها تعززت فقط بعد الحرب العالمية الثانية حيث استطاعت الصهيونية السيطرة.

والثانية، القوة والتأثير للايديولوجيات القومية تبحث بشكل عام بناء على حقيقة ان أمماً كثيرة مثل الولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندا والعديد من دول اميركا الجنوبية أسست من دون ايديولوجيا قومية أو تاريخية، بل حاولت الانتساب إلى الماضي.

ظاهرة الهجرة الجماعية

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الحرب

ولا يتفق المؤرخ درون مع الذين يصرحون بان الهجرة الجماعية لليهود تمت في أعقاب المذابح التي وقعت في روسيا العام ١٨٨١، ويضيف ان الهجرة نبعت من الامكانيات الكثيرة التي اتيحت أمام المهاجرين في الولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية والتطور السريع في صناعاتها. وعلاوة على ذلك كان السفر رخيصاً وبسيطاً وتجول وكلاء شركات السفر في اوروبا لترغيب المهاجرين بالعالم الجديد

العالمية الاولى هاجر ثلاثة ملايين يهودي من الدول الاوروبية معظمهم إلى الولايات المتحدة. وهاجر من روسيا ومحيطها ما يقارب ٢,٦ مليون يهودي، اي ان قرابة ٣٠٪ من يهود اوروبا انتقلوا من قارة إلى أخرى، فيما غيَّر يهود كثيرون آخرون أماكن سكناهم داخل اوروبا نفسها، ولم يأت منهم إلى «أرض اسرائيل» في تلك الفترة سوى فئة قليلة جداً.

ولا يتفق المؤرخ درون مع الذين يصرحون بان الهجرة الجماعية لليهود تمت في أعقاب المذابح التي وقعت في روسيا العام ١٨٨١، ويضيف ان الهجرة نبعت من الامكانيات الكثيرة التي اتيحت أمام المهاجرين في الولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية والتطور السريع في صناعاتها. وعلاوة على ذلك كان السفر رخيصاً وبسيطاً وتجول وكلاء شركات السفر في اوروبا لترغيب المهاجرين بالعالم الجديد. وخلال ذلك قدمت منظمات يهودية اجتماعية مساعدات سخية لمساعدة اليهود على الهجرة.

لكن المذابح التي تعرض لها يهود روسيا أثرت على وضعهم الاقتصادي والاجتماعي وكانت عاملاً لهجرة المثقفين وأصحاب رؤوس الأموال.

وحتى سنوات العشرين من القرن العشرين لم يهاجر إلى «أرض اسرائيل» سوى ١٪ من مجموع المهاجرين اليهود، وازدادت الهجرة إلى أرض اسرائيل بعد تشديد قوانين الهجرة الاميركية. وفي هذا المجال ذكر شترنهيل ان موجات الهجرة الأولى تمت لأسباب (الهجرات، اذا استخدمنا المصطلح الصهيوني المبرر) لكن مبررات نجاح المشروع الصهيوني تمت بعد موجات الهجرة إلى فلسطين من اوروبا من سنوات ١٩٢٤ – ١٩٣٩، حيث قدم أكثر من ٣٠٠ ألف مهاجر وشكلوا القاعدة للمجتمع الاسرائيلي المتبلور. وجاءت هذه الهجرات بناء على الوضع الاقتصادي الصعب في بولندا ومطاردة المانيا النازية لهم. وحسب شترنهيل، فان فلسطين كانت هي المكان الوحيد الذي سمح لليهود بالهجرة اليه، وهذه الهجرات منحت الاستيطان اليهودي تأشيرة عقائدية – والتي دونها من الصعب اقامة دولة.

ولا يوجد نقاش مع الحقائق: نموذج الهجرات الأولى وضعت الأساس للهجرات الجماعية التي حدثت في أعقاب الحرب العالمية الثانية. لكن ظلت مسألة المبرر الأخلاقي مفتوحة. فالصهيونية لا تستطيع القول انها انتصرت ايديولوجياً وعقائدياً لان الهجرة اليهودية إلى فلسطين تمت بعد اغلاق الولايات المتحدة لأبواب الهجرة اليهودية ولموافقة بريطانيا، لأسبابهم هم، السماح لليهود الدخول إلى البلاد. وفي نهاية الأمر أدت هذه القرارات إلى اجتثاث جماعي للفلسطينيين.

والبحث الموضوعي في عملية الهجرة اليهودية إلى أرض اسرائيل منذ تأسيس الحركة الصهيونية يشير إلى رغبة اليهود بأغلبيتهم المطلقة بالهجرة إلى الولايات المتحدة وإلى دول غربية نامية. وذلك على عكس ما قيل في بيان استقلال دولة اسرائيل، حيث قيل ان اليهود توجهوا إلى أرض اسرائيل فقط عندما لم يكن أمامهم خيار آخر. وبالاضافة إلى ذلك، لم تمنع الحركة الصهيونية إبادة يهود اوروبا.

واقامة دولة لليهود لم تكن معجزة وبالتأكيد لم تكن شيئاً خاصاً. وضمن هذا المفهوم كانت هناك دول أخرى مشابهة – ليس تشابهاً مطلقاً. فاسرائيل هي جزء من تيار واسع في التاريخ الحديث، وهي احدى الدول الكثيرة التي أُقيمت في أعقاب الأزمات الاقتصادية التي عمت اوروبا وتم تحويل هذه الأزمات إلى أزمات سياسية. ويعتقد ان الهجرة الايديولوجية المبكرة التي ضمت عدداً صغيراً جداً – قياساً مع موجات الهجرة الكبيرة – أصبحت القيادة فيما اصبح يعرف بدولة اسرائيل.

اليوم يمكن ايجاد مبررات واوصاف مبالغ فيها حول الهجرة الصهيونية، وبمصطلحات الصهيونية، فان المهاجرين من البلاد هجرة معاكسة يسمون «يورديم» [نازلين] مقارنة مع الـ«عوليم»، أي المهاجرين اليهود القادمين إلى البلاد. وكان هناك حوالي نصف مليون مهاجر يهودي هاجروا إلى الولايات المتحدة بحثاً عن «الكأس المقدس» الذي يسمى the green Card. ومن الصعب وصف ما يحدث لو الغيت قوانين الهجرة الاميركية رغم هجرة ٥٠ الف يهودي اميركي إلى اسرائيل منذ ١٩٤٨، لكن جزءاً منهم يعود اليها. وفي المقابل فقد هاجر في السنوات الاخيرة إلى اسرائيل عشرات ومئات آلاف العمال الاجانب من كل الدول المعمورة بحثاً عن الرزق، ويدور الحديث عن

وبناءً على المواضيع المعرضة لنقد في التاريخ الاسرائيلي، هناك بعض البقرات المقدسة المعدة للذبح. لكن ذلك لم يكن نقاشاً فارغاً أو نقاشاً أكاديمياً محدداً. لقد أشعل النقاش المذكور كل المنطقة من أكاديميين وصحافيين وسياسيين، وحتى قراء الصحف انضموا إلى الموضوع وأغرقوا صفحات الجرائد بردود غاضبة في معظمها. واتهم احد الأكاديميين المؤيدين للصهيونية مؤيدي ما بعد الصهيونية باستخدام الذرائع التي استخدمها الاتحاد السوفييتي في معاداته لاسرائيل.

عمال يتراوح عددهم بين ١٠٠-٣٠٠ الف أجنبي، جزء من اولادهم ولدوا في اسرائيل ويتعلمون في مدارسها، لكن من الواضح انهم ليسوا مهاجرين، لأن الهجرة هي حق لليهود فقط.

بحث مجدد للصهيونية الايديولوجية والعملية

خلال الانتداب البريطاني، كان السكان اليهود موحدين ايديولوجياً، وكان من الصعوبة بمكان الاشارة إلى جيوب معارضة ذات وزن، واستمر هذا الوضع إلى ما بعد اقامة الدولة بسنوات كثيرة.

وفي الآونة الأخيرة دارت نقاشات جدية حول ما سمي : «العرض التاريخي لماضي اسرائيل». ومن ناحية عملية اعتبر هذا النقاش تحدياً للأسس العليا للصهيونية نظرياً وعملياً، ومراجعة لتاريخ الدولة ووجود اليهود في فلسطين. وتطرح هذه المسائل في الجامعات والصحافة والتلفزيون وفي كل الأماكن. وظهرت مئات المقالات جزؤها الأكبر بتوقيع مجموعات أكاديمية شابة، سمّو أنفسهم فيما بعد بالمؤرخين الجدد أو يهود ما بعد الصهيونية الذين ظهروا لأول مرة في نهاية الثمانينيات عندما نشرت الكتب الأولى لبني موريس وايلان بابه وآفي شاليم وغرشون شبير، وبعد ذلك ساهم باروخ كمرلينغ واوري رام وآخرون.

ويتركز تحدي الأسس الصهيونية ليس فقط على تاريخ اسرائيل في العام ١٩٤٨ فهم يشككون بالوصف الرسمي المطروح منذ سنوات طويلة بأن «حرب الاستقلال» كانت حرب أقلية ضد أغلبية، ويتساءلون هل هرب الفلسطينيون العام ١٩٤٨ بناء على مطالب القيادة العربية لهم، أم تم الطرد من قبل الجيش الاسرائيلي؟

ويريدون ان يعرفوا هل القيادة الاسرائيلية في ذلك الوقت كانت معنية حقيقة بالسلام أو باقامة دولة فلسطينية حسب قرار التقسيم الذي وافقت عليه الأمم المتحدة في ٢١ تشرين الثاني من العام ١٩٤٧، وهو القرار الذي يرفضون مناداته باسمه الكامل؟ ويتحدى مؤيدو ما بعد الصهيونية الزعماء اليهود ويطالبون بكشف حقيقة علاقة الزعماء اليهود بيهود اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. وينتقدون طريقة استيعاب المهاجرين اليهود بعد «حرب الاستقلال» وهي الطريقة التي أصبحت أساساً للتعامل العام مع يهود الشرق. لكن معظمهم امتنع عن توجيه انتقادات مبدئية للأيديولوجيا الصهيونية وسياسة الاسكان (او الاستيطان) قبل العام ١٩٤٨. والشاذ عن هذه القاعدة هو غرشون شبير، الذي يصف السكن اليهودي في أرض اسرائيل على انه استعمار.

وبناءً على المواضيع المعرضة للنقد في التاريخ الاسرائيلي، هناك بعض البقرات المقدسة المعدة للذبح. لكن ذلك لم يكن نقاشاً فارغاً أو نقاشاً أكاديمياً محدداً. لقد أشعل النقاش المذكور كل المنطقة من أكاديميين وصحافيين وسياسيين، وحتى قراء الصحف انضموا إلى الموضوع وأغرقوا صفحات الجرائد بردود غاضبة في معظمها. واتهم احد الأكاديميين المؤيدين للصهيونية مؤيدي ما بعد الصهيونية باستخدام الذرائع التي استخدمها الاتحاد السوفييتي في معاداته لاسرائيل. أما شبتاي تيبت، الذي كتب سيرة حياة بن غوريون، فقد اتهمهم

بأنهم مؤيدون للفلسطينيين لأنهم يزيلون الشرعية عن الصهيونية، ومع الأخذ بعين الاعتبار الجو الذي ساد في البلاد، فان ردود الأفعال قيدت من شرعية المفكرين الشباب.

وأحد أسباب ردود الافعال قيام أفراد هذه المجموعة بمس خطير بالشخصية الاسرائيلية المستقلة. والأهم من ذلك هو تحويل النقاش إلى نقاش سياسي خارج الحرم الأكاديمي.

ومن أجل توضيح الأمر حول الاستعمار والكارثة وما بعد الحداثة، سابحث في مقال البروفسور انيتا شبيرا (تعد من أوائل مؤرخي الصهيونية) التي ناقشت مؤيدي ما بعد الصهيونية وكتبت مقالات كثيرة عن اليهود، ومن كتبها سيرة حياة بيرل كتسنلسون، الذي أسس مع بن غوريون حركة العمل. وتطرقت إلى المؤيدين لما بعد الصهيونية في مقدمة مقالها قائلة: «وجهة النظر الجديدة تعبر عن تغيير جوهري اتجاه المشروع الصهيوني من رؤيته كمشروع ايجابي ومهم في تاريخ اليهود والانسانية – رغم مشاكل التنفيذ التي رافقته – إلى الملاحظة بالموافقة على حقيقة وجود دولة اسرائيل، لكنهم لا يمنحونها قيمة جوهرية».

ومن دون الدخول في الصياغة «للقيمة الجوهرية» (أية قيمة جوهرية للدنمارك او المغرب؟) من الواضح ان شبيرا تتعامل مع المشروع الصهيوني بروح ايجابية «رغم مشاكل التنفيذ» التي وقعت جميعها على كاهل الفلسطينيين. لكن قبل البحث في هذه المشاكل من الجدير التوقف للحظة والتفكير بعمق حول طريقة الدفاع الصهيوني عن مشاكل التنفيذ التي لا يوجد لها وزن في «المشروع الايجابي»، ولغة المنتصر تعطيه الحق بتحديد ما هي المشكلة وما هي الكارثة الوطنية.

هل كانت هناك كولونيالية؟

لا توافق شبيرا على دراسة اقتراح مؤيدي ما بعد الصهيونية على نقاش الموضوع وفق النموذج الاستعماري، الذي يقول ان دولة اسرائيل هي مجتمع مستوطنين مثلها مثل كثير من الدول. لان هذا الموضوع يعتبر نقطة الضعف الرئيسية في التأريخ الصهيوني التقليدي. وتؤكد الرواية الصهيونية بشكل دائم على الفرق بين السكن والاستيطان (Colonialism and Colonization) فالاستعمار معناه استغلال وقمع واستبدال سكان أصليين من قبل أو بمساعدة من قبل دولة استعمارية. مقابل ذلك فان الرواية الصهيونية تصر على ان إسكان البلاد تم بطرق سلمية وذلك من خلال تهجير اليهود الذي كان لمصلحة السكان المحليين.

وفي المقابل، فان غرشون شبير يعتقد ان الاستيطان اليهودي يبرر أعمال المشروع الاستعماري. والتحديث الذي قامت بتنفيذه الحركة الصهيونية (...) كان جزءاً من الأعمال الاستعمارية، واهداف الاستيطان واحتلال العمل والأرض تمت بدعم من مؤسسات الاستيطان مثل اتحاد النقابات (الهستدروت) والصندوق القومي لاسرائيل (كيرن كييمت) بصورة غير محدودة. والاراضي التي قام الصندوق القومي بشرائها، منع بيعها للعرب ومنع تشغيل العمال العرب في اراضي الصندوق القومي. أما الكيبوتسات التي تم بناؤها بشكل عام على أراضي الصندوق القومي فقد أسكنت باليهود فقط، وكان ذلك البناء حالة فريدة عند أبناء الهجرة الثانية – وضمن هذا المفهوم أصبحت وطنية من أساسها.

ويوضح شبير ان مصلحة الدول الاوروبية العظمى هي التي جعلتهم يدافعون عن هجرة اليهود، وذلك لضمان تحرك مندوبي الأمم الاوروبية بحرية قياساً مع القيود التي وضعتها الامبراطورية العثمانية. وكذلك التأثير المباشر على اقامة علاقات سوق رأسمالية– خاصة ما يتعلق بشراء الأراضي. أما السكان المحليون فاعتبروا جزءاً من المنظر الطبيعي الواجب قمعه وترويضه وهو يبتسم. وفي المقابل، فان المحليين خافوا من فقدان اراضيهم «وبذلوا كل شيء من أجل الدفاع عما تبقى».

ونظراً لصعوبة مقاومة الحقائق، حدث أمر غريب في النقاش مع المؤرخين الجدد، حيث اعتُمدت معظم أبحاثهم واستنتاجاتهم – من دون رغبة– وتحول النقاش حول تفسير الحقائق. وتحت هجوم المؤرخين الجدد، تراجع النقاش للدفاع عن الصهيونية، وفي هذا المجال كتبت شبيرا قائلة: «عدم الرغبة باستخدام هذه الأفكار ينبع من حقيقة انها كانت جزءاً من الدعاية المعادية للصهيونية التي اتهمت اسرائيل والصهيونية بالانتماء لقوى الشر وانها ضد العالم المتطور والمعادي للاستعمار. اليوم،

وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي الذي حول الاستعمار إلى الشيطان الأبيض للعالم الثالث. وتحرير العالم من الوصاية الغربية، فان هناك مجالاً لنقاش رزين متحرر من الايديولوجيا في كل ما يتعلق بالاستعمار»، واضافت: «ليس كل حركة استيطانية مرفوضة اتوماتيكياً، وليست كل حركة وطنية مقدسة. يجب نقاش النموذج الاستعماري نقاشاً اكاديمياً مفتوحاً، لا يعتمد على مواقف مسبقة من الرفض له او توجيه الاتهامات له» وتتساءل شبيرا: «هل الاستيطان الأبيض للولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندا سيذكر إلى الأبد بخجل بسبب التعامل المتوحش مع السكان المتخلفين؟»

يجب الاعتراف ان أقوال شبيرا بقصد أو دون قصد، ظلت ثابتة، ومن أجل الدفاع عن الاستعمار في فلسطين يجب الدفاع عنه في كل مكان، او على الأقل التشكيك بالنموذج الاستعماري.

ويعتقد أن الأوساط الأكاديمية الليبرالية لم تعد تعتبر أن «الشيطان الأبيض» إنتاج سوفييتي، بل هو حقيقة واقعة مرفوضة من الغالبية العظمى من الشعوب منذ مئات السنين. وبالإضافة إلى ذلك، كان يمكن تفهم التمسك بالرأي القائل إن العالم الثالث تحرر من سيطرة الغرب. أما اليوم فإن أحد أخلص المحافظين يتمسك بهذه النظرية على ضوء الأزمة التي يتعرض لها السوق العالمي وتدخل صندوق النقد العالمي والبنك الدولي في شؤون العالم الثالث. ويكفي التطلع إلى خارج إسرائيل، وحتى داخل إسرائيل نفسها كي نشعر بالتعلق الاقتصادي والسياسي والعسكري المطلق بالغرب.

وما هو واضح، أن الجرائم والمخالفات وعدم عدالة الاستعمار، لا تنفي حق الوجود للشعوب التي هجرت أو التي حلت مكانها. لكن هناك فرق بين الموافقة على حقوق الأستراليين والأميركان وحتى الإسرائيليين للعيش بسلام وبين مسح الظلم الذي لحق بغيرهم منذ بداية المشروع. ويذكرنا جورج سنتانا أن التاريخ يكرّر نفسه.

المهم في هذا النقاش الذي جرى هو الابتعاد وعدم الإحساس بمعاناة ملايين البشر نتيجة استعمار بلادهم، وبدلاً من النقاش المتروي والمتحرر من الأيديولوجيا يجدر بنا الاستماع إلى الأصوات الأيديولوجية للذين يعيشون تحت الاستعمار؟ . وفي هذا المجال كتب إيما سيزار – أديب من المارتنيك – يقول: «ما هو قصد؟ هذه الفكرة: لا يوجد شخص يستعمر بصورة بريئة (...) أو متحررة من العقوبات. والأمة التي تستوطن بلاداً أخرى وتبرر الاستيطان فيها بما في ذلك استخدام القوة هي أمة مريضة ومجتمعها يعاني من مرض أخلاقي (...). والعلاقة بين المستوطن وأحد أفراد المجتمعات المتخلفة هي علاقة: عبودية وتخويف وشرطة وضرائب وسرقة واغتصاب وزراعة إجبارية وكراهية وعدم ثقة وحقد، ومحرمات. إنهم نخب غير واعية وجماهير مذلولة».

وتتساءل شبيرا: هل سيذكر المستوطنون البيض إلى الأبد بالسوء؟. وتجيب: إن المجتمعات الغربية الكبيرة والقوية لن تتهم بسوء معاملتها للأمم المتخلفة، وسينسى ضحايا الصهيونية بعد عيشهم في مستقبل وردي. وعلى أية حال، فإن التذكر والنسيان سيحددا على ما يبدو من قبل المنتصر.

وما هو واضح، أن الجرائم والمخالفات وعدم عدالة الاستعمار، لا تنفي حق الوجود للشعوب التي هجرت أو التي حلت مكانها. لكن هناك فرق بين الموافقة على حقوق الأستراليين والأميركان وحتى الإسرائيليين للعيش بسلام وبين مسح الظلم الذي لحق بغيرهم منذ بداية المشروع. ويذكرنا جورج سنتانا أن التاريخ يكرّر نفسه.

وفي حالات كثيرة يمكن تصحيح الأخطاء، خاصة في حالة الفلسطينيين. لأننا في حالتهم لا نعيش الماضي وإنما نقف أمام حقائق تاريخية، فهم يعيشون بيننا كشعب ويستطيعون طلب العدالة لهم، أو على الأقل إقامة كيان سياسي قابل للحياة، مثل دولة فلسطينية في الضفة الغربية بحدود العام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس.

الكارثة – استخدامات واستخدامات سيئة

يُعتبر عامل الكارثة (الهولوكست) أمراً مركزياً في الدفاع الصهيوني بشكل عام، وعند البروفسور شبيرا بشكل خاص، وتنتقد إيلان بابه حين يقول: إن إقامة دولة إسرائيل تمت بمساعدة غربية، وهُجّر الفلسطينيون عن قصد. وبرر التهجير العملي لمنح اليهود خصوصية خاصة بهم في أعقاب الكارثة التي حدثت لهم.

وترد شبيرا على ذلك قائلة: من يرى بالنزاع الإسرائيلي –

يقولون إن نورداو جاء إلى هيرتسل غاضباً وقال له: «علمت أن في فلسطين عرب، وإذا كان ذلك صحيحاً فالحق لن يكون بجانبنا». ويضيف بوبر: إذا كان ما ذكر صحيحاً، فإن ذلك يعبر عن نزاهة مذهلة. والحياة بطبيعتها مرفقة بجرائم. أما إنكسمندر فيعتقد أن وجودنا يدل على عدم عدالة الوجود العالي، وعلينا رد ذلك إلى بشر آخرين. وفي جميع الأحوال لا توجد حياة من دون تدمير حياة أخرى. وإذا نظرنا بتركيز سنرى أن كل شيء خاضع، فشخص ما يسرق من شخص آخر قطعة أرض ليعيش، وكل من يركز النظر لا يستطيع تحمل حياته».

الفلسطيني في المجال الشرق أوسطي فقط، يرفض اعتبار الكارثة من سلسلة الأسباب والشروحات التي تبرر تصرفات إسرائيل. فالهوية الإسرائيلية المحلية الجديدة والموصوفة بالمعزولة عن التاريخ اليهودي لا تبقي مكاناً للأسباب التي أدت إلى حدوث الكارثة. كذلك، فإن وضع النزاع العربي – الإسرائيلي في سلم الأولويات الإسرائيلية يعتبر مصدراً لمسح تأثير الكارثة على الهوية الإسرائيلية.

والمهم جداً بالنسبة لشبيرا هو أن موضوع الكارثة يشوّش أية محاولة للمقارنة المبسطة بين الوضع في إسرائيل وبين الوضع في الدول الاستعمارية الأخرى.

ولا تتطرق شبيرا بالمرة إلى الشعارات التي يطرحها بابه مثل «لا للاستعمار ولا لتهجير الفلسطينيين، ولا لاستخدام الكارثة لتبرير وجود الصهيونية». غير أنها تستخدم الكارثة في النقاش لتصل إلى الوضع المرغوب عندها. وعلى أية حال، فإن تهجير الفلسطينيين (بمساعدة الاستعمار) الذي ساهم في وضع حجر الأساس للدولة حدث قبل الكارثة، واستمراره بعدها غير مرتبط بما يدعيه بابه. غير أن شبيرا حولت الكارثة إلى أساس دفاعي في النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني. ولهذا فهي تتنازل عن الحاجة إلى نقاش جدي حول الأسباب والمسببات وعن القيم الإنسانية وعن المبررات والمساواة.

وخلال فترة بناء المستوطنات اليهودية في فلسطين اضطر الفلسطينيون إلى ترك أراضيهم في البداية، وإلى ترك وطنهم فيما بعد. وحسب شبيرا فإن الكارثة التي تعرض لها اليهود هي السبب والمفسر لتصرفات إسرائيل. وتقول: الكارثة جزء من هويتنا، وفهمها يساعد على تبرير احتلال الضفة الغربية العام ١٩٦٧ وضم القدس الشرقية ومواصلة مصادرة الأراضي العربية.

وتستخدم إسرائيل الرسمية الكارثة بكل الأشكال حتى أن كل شخصية رفيعة تقوم بزيارة إسرائيل «تفوز» بزيارة مقر الكارثة والبطولة (ياد فشيم). كذلك، جرت مقارنة بين عرفات وهتلر لسنوات طويلة. ولم تصمت إسرائيل عندما نشرت صورة لطفلة قتلت في مخيم اللاجئين (صبرا وشاتيلا) مع صورة لطفل من غيتو وارسو وهو منقول إلى المحرقة.

وتعتبر الكارثة – كمأساة حلت باليهود – حجر الأساس في بناء الأمة، حيث تعتبر الضياع والابادة تهديدان دائمان. غير أن إسرائيل لم تتعامل مع الكارثة خلال أول عشرين عاماً من تأسيسها معتبرة إياها غير مهمة، وذكرت في إحدى الروايات على أنها لم تساهم في مدح إسرائيل. وفي العام ١٩٦٠ أصبحت الكارثة أمراً مركزياً واستخدمت كسلاح أيديولوجي ضد الدعاية الفلسطينية – استخدمت داخلياً وخارجياً لإقناع العالم بأن الإسرائيليين هم الضحايا الأساسيون.

وكم هو محزن التفكير بحقيقة أن الكارثة استخدمت في بعض الأحيان لغسل الأدمغة القومية، وكما تقول شبيرا: «بالتعامل الوطني المعتدل مع العرب»، بدلاً من استخدامها في الدعوة إلى الأخوة والصداقة بين الشعوب وضد العنصرية والتعصّب القومي والاهتمام بمعاناة الآخرين.

ويجدر هنا القول، إن شبيرا واحدة من عدد كبير من المدافعين عن الصهيونية من بينهم خبراء عقائديون مشهورون مثل غرشون شالوم ومارتن بوبر، الذين يميلون الى التهرب

ودخلت الأمة الجديدة في وعي وطني عميق واعتبرت نفسها في مرحلة ما قبل الدولة. وبعد تحقيق الصهيونية لأهدافها برزت تناقضات داخلية، لأن الصهيونية خرجت من الرحم الاوروبي ولم تتلاءم مع الحلم الأصلي. ولم تكن الأمة الجديدة يهودية بالمعنى المقبول، رغم انها انبثقت من رحم اليهودية وتعاملت مع مرجعياتها كما هو الحال مع الأمم الاستيطانية الاخرى مثل الأميركان والكنديين في علاقتهم مع بريطانيا. أما تمسك اسرائيل بالصهيونية كأيديولوجيا فإن لذلك أسباباً مختلفة كلياً.

من المواضيع المطرحة والتوجه نحو الأدب الفلسفي بشكل عام. وعلى سبيل المثال اقتبس بوبر يقول: إن «جهودنا الاستيطانية كانت احتلالاً بطرق سلمية، وأصحاب الأخلاق من بيننا لم يرغبوا في البقاء أنقياء لأننا نخوض صراعاً من أجل البقاء». وأضاف: «عندما خصصنا أرضاً للأجيال القادمة اضطررنا إلى تقليص الأراضي الممنوحة للأجيال العربية القادمة... يقولون إن نورداو جاء إلى هيرتسل غاضباً وقال له: «علمت أن في فلسطين عرب، وإذا كان ذلك صحيحاً فالحق لن يكون بجانبنا». ويضيف بوبر: إذا كان ما ذكر صحيحاً، فإن ذلك يعبر عن نزاهة مذهلة. والحياة بطبيعتها مرفقة بجرائم. أما إنكسمندر فيعتقد أن وجودنا يدل على عدم عدالة الوجود العالمي، وعلينا رد ذلك إلى بشر آخرين. وفي جميع الأحوال لا توجد حياة من دون تدمير حياة أخرى. وإذا نظرنا بتركيز سنرى أن كل شيء خاضع، فشخص ما يسرق من شخص آخر قطعة أرض ليعيش، وكل من يركز النظر لا يستطيع تحمل حياته».

كل ذلك يكفي لتفهم العذابات الفكرية التي مرّ فيها بوبر والتي تلخص «بجهود الاستيطان التي قمنا بها». ما يجري أمامنا هو تقاسم أدوار مذهل. فالمنتصرون يفكرون بطريقة فلسفية (بمساعدة إنكسمندر). من جهتنا ربما نندم قليلاً، أما هم فسوف تقلص «مناطق عيشهم».

ويمكن الاتفاق مع شبيرا في رفضها لطرح دان دينر الذي قال: إن «الكارثة هي الأسطورة المؤسسة لدولة إسرائيل»، لكن يوجد اتفاق بأن مخيمات اللاجئين التي أنشئت بعد الحرب ساهمت مساهمة فاعلة في تجنيد الرأي العام الدولي لصالح تقسيم البلاد إلى دولتين، دولة يهودية إلى جانب دولة فلسطين، كذلك ناقشت شبيرا طرح مؤيدي ما بعد الصهيونية الذين ذكروا أن القيادة الصهيونية في فلسطين لم تبذل جهوداً كافية لإنقاذ يهود أوروبا، وهي ترفض هذا الطرح مدعية أن المبدأ الصهيوني يرفض الوجود في المنافي ومن الصعب على القيادة اليهودية في فلسطين إنقاذ عدد كبير من اليهود وقت الحرب. وأضافت قائلة: يبدو أن القيادة اليهودية كانت تستطيع المساعدة قليلاً لو طالبت بفتح جبهة ثانية في سنوات ١٩٤٣-١٩٤٤ وذلك عن طريق تجنيد الرأي العام في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا. وتقول إن المحزن في هذا الأمر أن القيادة اليهودية لم ترغب في إحراج دول الحلفاء.

وإذا سمح لي بتجاوز الموضوع قليلاً، فإن عدم الاعتراف بأن المهجر هو جزء لا يتجزأ من الأيديولوجيا الصهيونية يشير إلى المصدر الأوروبي للصهيونية التي تعاملت بكبرياء وتحقير مع يهود المنفى - Lufmensch - الذين اعتبرتهم غير منتجين وغير مستعدين لتوسيخ أياديهم بالعمل الأسود، وهم أشخاص ضعاف وجبناء وغير مثقفين. ومن غير الصعوبة بمكان اكتشاف الوصف الفارغ ومعاداة الصهيونية من أجل إقناع اليهود بالتخلي عن المهجر المذلّ. أما اليهودي الجديد في «أرض إسرائيل» فقد قيل عنه أنه جريء وفلاّح عائد إلى أرضه وجذوره ووطنه من أجل إنقاذ أرضها وتجفيف المستنقعات فيها وليزرع الصحراء.

وعودة إلى فترة الكارثة التي حلت باليهود خلال الحرب وموقف القادة اليهود منها، حيث ذكر أن القيادة اليهودية تعمل كالمعتاد. وفي هذا المجال ذكرت دينا بورات المحسوبة

على مؤيدي مابعد الصهيونية في كتابها «موقف يهود أرض إسرائيل من إبادة يهود أوروبا» أن اليهود وقياداتهم لم يغيروا من نمط حياتهم شيئاً ولم تكن هناك انفعالات خاصة على اليهود الذين حلّت بهم الكارثة، وذلك على عكس الرواية الرسمية.

ويقول توم سغيف إن الرد لم يأت من بسطاء الناس فقط، بل امتد ليشمل القيادة اليهودية التي لم تكترث لما يحدث لليهود في أوروبا، واقتبس عن بن غوريون قوله: «إنني لا أفهم بشؤون الإنقاذ رغم رئاستي للوكالة اليهودية، وجلّ اهتمامي منصبّ على تجنيد الشعب اليهودي للمطالبة بإقامة الدولة اليهودية».

واقتبس عن بن غوريون قوله: «إن الكارثة التي تعرض لها يهود أوروبا لا تعنيه مباشر». أما شبيرا فتقول إن الزعيم الروحي لحركة العمل الصهيوني بيرل كتسنلسون ظل صامتاً بشكل مطلق عندما حصلت الكارثة التي تعرض لها اليهود.

اما اسحق غرينبويم رئيس لجنة ا لانقاذ في الوكالة اليهودية وكان قبل الحرب من ابرز زعماء الحركة الصهيونية في اوروبا وزعيمهم في البرلمان البولندي، فقد صرح في جلسة عقدتها القيادة الصهيونية خلال الحرب: [...] يطلبون مني اموالاً من الصندوق التأسيسي لتمويل انقاذ اليهود وقد رفضت ذلك واكرر رفضي مرة اخرى. واضاف منذ شهر يضغط الحاخام ليفين مطالباً بأموال من الصندوق التأسيسي لاستخدامها في انقاذ اليهود – وطالب بوقف بناء القرى الجديدة لذلك الهدف [...] وهنا اقول ان الصهيونية فوق الجميع.

ورغم وجود مثل هذه المقولات الا ان شبيرا لا تشير أن القيادة واليهود في فلسطين لم يكترثوا بما حدث ليهود اوروبا، وتقول ان كثير من القيادات اليهودية لها اقارب هناك وبالتأكيد اهموا بهم. لكن الحقيقة هي ان سلم الأفضليات للحركة الصهيونية كان مختلفاً، وكان بناء الأمة موضوعاً بشكل دائم على جدول الأعمال اليومي.

ويوجد دفا ع آخر عن اليهود وقيادتهم في فلسطين وهي

نساء يهوديات في قطار مغلق الى الـ « اوسفيتش »

ان المعلومات عن الكارثة التي حلت باليهود اتت متأخرة، وأن حجم الكارثة لم يتبين الا بعد فترة طويلة. ورغم ان ذلك كان صحيحاً، إلا ان السبب الأساسي لتجاهل الكارثة يعود الى اهتمام القادة اليهود بالكيان المنفرد وبجدول الأفضليات الذي وضعوه، حيث اهتموا ببناء مؤسسات اقتصادية وعامة وجيش مستقبلي وثقافة خاصة بهم، وحينها امتلك اليهود كل مؤشرات الخصوصية باستثناء الاستقلال، وعليه كان طبيعياً ان تنصب الجهود على تحقيق التطلعات الوطنية.

غير ان القيادة الصهيونية لم تعترف بأنها تفضل المصلحة المحلية على المعاناة اليهودية، لأن ذلك يتناقض مع الأيديولوجيا الصهيونية من أساسها، وما زال هذا الموقف سائداً حتى هذا اليوم. وعلى أية حال هناك فوارق كبيرة بين اسرائيل وبين يهود الخارج، فالمصلحة الاسرائيلية الداخلية أهم من المصالح اليهودية الخارجية.

ودخلت الأمة الجديدة في وعي وطني عميق واعتبرت نفسها في مرحلة ما قبل الدولة. وبعد تحقيق الصهيونية لأهدافها برزت تناقضات داخلية، لأن الصهيونية خرجت من الرحم الاوروبي ولم تتلاءم مع الحلم الأصلي. ولم تكن الأمة الجديدة يهودية بالمعنى المقبول، رغم انها انبثقت من رحم اليهودية وتعاملت مع مرجعياتها كما هو الحال مع الأمم الاستيطانية الاخرى مثل الأميركان والكنديين في علاقتهم مع بريطانيا. أما تمسك اسرائيل بالصهيونية كأيديولوجيا فإن لذلك أسباباً مختلفة كلياً.

وعلى أية حال، صدق مختلف النقاد عندما ذكروا أن القيادة الصهيونية لم تتعاطف مع يهود اوروبا وتنكرت لهم (وهي تصرفات عادت وكررت نفسها في التعامل مع اليهود الشرقيين). لكن النقاد تجاهلوا حقيقة أساسية وهي بروز قومية جديدة.

ما بعد الصهيونية وما بعد الحداثة في السياق الشرق أوسطي

تهاجم شبيرا مؤيدي ما بعد الصهيونية كونهم من مؤيدي ما بعد الحداثة، وحسب فهمها فإن مؤيدي ما بعد الحداثة يعرفون التاريخ بأنه رواية (NARRATIVE) قصة يكتبها مؤرخون تلبية لاحتياجاتهم الايديولوجية. وتصل الى نتيجة مفادها أنه لا توجد رواية مفضلة عندهم عن الاخرى، ويعتبرون الروايات وسيلة لتحقيق اهداف سياسية اواجتماعية للذين يتحدثون باسمهم. وتعلن شبيرا ان المنطق الداخلي Deconstructionism لكل رواية يتساوى في القيمة مع غيره من الروايات. وتستخدم شبيرا هذا التعريف لمعرفتها أن مؤيدي ما بعد الصهيونية لا يحترمون الحقائق ويسمحون لأنفسهم بتعبئة ما ينقص الحقيقة من دون اسس.

ويصف بعض مؤيدي ما بعد الصهيونية انفسهم بأنهم من مؤيدي ما بعد الحداثة بمفاهيم معينة. لكن عندما يتعلق الأمر بنقاش يدور في البلاد حول الروايات فهم بالتأكيد تابعون للمدرسة القديمة التي تريد رؤية الحقائق كما هي. وفي ساحة المواجهة الحقيقية مع مؤرخي الصهيونية الرسمية، يتمركز مؤيدو ما بعد الصهيونية حول مواقفهم بطريقة لا يتحملها حتى مؤيدي ما بعد الحداثة.

وعمليا يمكن الاشارة الى عناصر ما بعد الحداثة والتي دخلت الى أحاديث شبيرا نفسها، ورغم انها ترفض بشدة اي استخدام «للروايات» الا انها تسمح لنفسها باستخدامها. وفي لقاء معها العام ١٩٩٤ قالت ان «الصراع العربي اليهودي بدأ عندما داست اول قدم صهيوني ارض فلسطين، ولم يستطع اليهود التنازل عن ما بدا انه الأمل الوحيد للشعب اليهودي. أما الفلسطينيون فلم يكن لهم اي سبب للتنازل عما يعتبرونه حقهم الوحيد بهذه البلاد».

عرض الامور بالصورة المذكورة يشير ان قائلها تحدث بالطريقة التي يتحدث فيها مؤيدو ما بعد الحداثة.

فأمامنا روايتان، كل شعب وروايته، وهناك اعترف بوجود رواية «للآخر» والاعتراف برواية الآخر ليست امرا جديداً، ومؤيدو ما بعد الحداثة – كما جرى في مجالات كثيرة – يصيغون المواضيع القديمة بطريقة جديدة.

لكن عندما تعرض المواقف بهذه الطريقة علينا الخوف من ظاهرة ما بعد الحداثة.

وعلى مدار السنوات السابقة كانت هناك حقيقة تاريخية صهيونية واضحة، ومن الناحية العملية فإن طريقة طرح شبيرا

ولم يكن المؤرخون الجدد هم أول من شكك بالأيديولوجية الصهيونية الرسمية. فالعكس صحيح، فقد ولدت الصهيونية ومعها ولدت الانتقادات، التي وجهت من قبل أبرام لفين وإيلان هليفي ومكسيم روديسن وموشيه سنيه وتمار غوجانسكي - من وجهة نظر ماركسية. وكتب سماحة يلبن حول الأساطير والواقع عند إقامة الدولة وبوعز عبرون انتقد الحركة الصهيونية بشكل شامل. وكثيرة هي المقالات والحوارات التي نشرت على مدار السنوات المعارضة للصهيونية وغيرها، ونضيف إلى هذه القائمة الكتب التي نشرت في الخارج بأقلام كتّاب مرموقين مثل إدوارد سعيد ونعوم شومسكي ونورمان فينكلشتاين وآخرين.

هي عرض لروايتين وفق الرؤية الدفاعية للصهيونية التقليدية. وهي تضع الروايتين في نفس الميزان.وهل ذلك ممكناً؟. من جانب أمامنا «الصهيوني الأول الذي داس ارض فلسطين» وفي المقابل السكان الفلسطينيون (هنا يجب الانتباه بسهولة غير محتملة كيف حول الشعب الفلسطيني المتخلف الى سكان).

ومنح الصهيوني الاول والوحيد (الذي يحمل على كاهله الأمل الأخير للشعب اليهودي) مكانة مساوية لشعب متخلف يعيش في وطنه. ومسألة العدالة هنا غير مثارة لعدم وجود قيم انسانية. واين الحقيقة والعدل عندما وافق الصهيوني الأول على اجتثاث شعب كامل من ارضه. وبعد ذلك نقول ان الصراع لا يمكن منعه؟ وفي اية محكمة يمكن الموافقة على وجهة النظر هذه؟.

اذا لا عجب أن التأريخ الصهيوني المعرض للهجوم يضطر الى التمسك بروايته، وربما يكون ذلك المخرج الوحيد للقوميين اليهود.

وفي المجال الأوسع يمكن القول ان شبيرا ومن شابهها (من دون القصد) ينتمون للتيار المؤيد لما بعد الحداثة الذي يتبناه الأميركي ريتشارد رورتي – مثل القومية الاميركية الحديثة التي تتطلع الى مصالح الولايات المتحدة كقوة عظمى. ويشير ميخائيل بيليغ أن رورتي ينتقد بشدة التوجهات الإنسانية في الفلسفة والثقافة (Enlightenment Philosophy). ويعرف روتي نفسه على أنه أميركي شمالي وليبرالي وبرجوازي مؤيد لما يسمى لعصر ما بعد الحداثة، ويتبنى موقفا يطالب بعدم إقحام الأخلاق والسياسة في الأفكار الانسانية المشتركة. وما يعتبر منطقياً او متطرفاً هو أمر نسبي للمجموعة التي نريد ان نؤيدها – الى جانب مجموعة من المواثيق المشتركة لنا والتي تحدد مقصد كلمة «نحن» [...] بهذه الطريقة فإن المجموع هو خارج القضاء الاخلاقي او السياسي او العلمي. ووحدة اطياف المجتمع هي هدف بحد ذاته. ومن غير الممكن انصافها وفق مبادئ أخلاقية، وكأن هناك نوعاً من الأخلاق العالمية الموجودة عند غير اليهود.

وحسب هذا المنطق، نحن محررون من واجباتنا القديمة النابعة من قيم عالمية. فالمحكمة لنا والمدعي العام والدفاع منا ونحن الحكم والمحلفون. ومسألة الاستعمار وأزمة اللاجئين الفلسطينيين وخروجهم الجماعي مما يسمونه وطنهم، هي مشاكل تحل وتختفي من ذاتها.

شبيرا لم تذهب بعيداً كما هو الحال عند رورتي بخصوص العرق وعدم توزيع الموارد، فهي لا تستطيع تجاهل مشاكل الاستعمار مطلقاً، غير أنها اقتربت كثيراً من رورتي عندما قالت «نحن نحتاج إلى تأملات داخلية» حول كيفية تفسير المجتمع لنفسه وكيف يفهم ذاته؟. وهذا التفسير خاص لكل مجتمع وينبع من تقاليده الأخلاقية والثقافية ومن الميزات الروحية والأيديولوجية للتابعين لذلك المجتمع وتطلعاتهم. والتصور «الداخلي» وسيلة شرعية لكل مجتمع على حدة.

العرق وعدم توزيع الموارد التي طرحها رورتي، مثل تطرقه الذاتي الساخر، بورك من قبل بعض المؤرخين الصهاينة الذين تعبوا من الدفاع عن الصهيونية. وفي اليوم الدراسي الذي عقد في جامعة حيفا واشترك فيه عدد كبير دار نقاش بين أحد المؤرخين المذكورين أعلاه مع آخر من مؤيدي مابعد الصهيونية الذين لا يوافقون على أن إسرائيل كانت الطرف الأضعف في

حرب العام ١٩٤٨ حيث قال «كما هو معلوم كنا أقوى من العرب، ولولا ذلك لما انتصرنا في الحرب. ولو لم نطرد الفلسطينيين كيف تستطيع إسرائيل العيش مع أقلية عربية كبيرة؟، وأعلم أننا أقمنا دولتنا على دمار الفلسطينيين، ومن الواضح أنه كان هنا شعب آخر. واليوم توجد دولة يهودية، ولا توجد دولة فلسطينية، ما هو موجود اليوم لاجئون فلسطينيون!...

وحرب التحرير كانت حرباً من أجل توسيع حدودنا... كان هناك طرد، وشاركت بطرد الفلسطينيين، والمشكلة العملية التي واجهتنا هي: هل نسمح بعودة اللاجئين [...]. أدرك أن ما قلته يزود مؤيدي ما بعد الصهيونية بالذخيرة، لكن جيد أننا سمحنا لهم بأن يكتبوا ما يشاؤون.

ويجب إضافة أمر آخر، كان المتحدث من أوساط اليسار الصهيوني.

هذا هو تأثير ما بعد الصهيونية على الصهيونية المتطرفة، وفي الحياة الأكاديمية لا يفيد النفي، ونتيجة لذلك نحن أمام حالة من «الاستقامة» المطلقة. نعم لقد عملنا كل هذه الأمور، لكن الهدف يبرر الوسيلة والاستقامة تعفينا من تهمة الجرائم.

ويبدو أن الصهيونية لن تختفي، والادعاء بأنها انتهت هو تهرب من الموضوع. والتهرب غير موجود في التأريخ أو حتى في المجال الأيديولوجي. وفي هذا المجال، فإن مابعد الصهيونية موجه ضد التأريخ الصهيوني. ويمكن القول إن مؤيدي مابعد الصهيونية، أو على الأقل معظمهم معادون للصهيونية، لكنهم لم يظهروا بعد.

من هم أتباع تيار ما بعد الصهيونية؟

يعتبر أنصار مابعد الصهيونية مجموعة (رغم الفوارق بينهم) متجانسة كثيراً، ومعظمهم من جيل الباحثين الشباب الذين ولدوا بعد العام ١٩٤٨، ولا يشك في استقامتهم الأكاديمية، وتلقى معظمهم تعليمه العالي في جامعات إنكلترا والولايات المتحدة، وتنشر كتبهم باللغة الإنكليزية. ويعترف بعضهم أن بروزهم مرتبط بتغيير الأجيال، أو بفتح الأراشيف (يوجد في إسرائيل قانون السرية لمدة ٣٠ عاماً) مع بداية حياتهم الأكاديمية – ربما ذلك ليس صحيحاً فمعظم المعلومات التي نشرت كانت معروفة مسبقاً (صرح شبير أن المعلومات التي تعتمد عليها أبحاثه ليست من النوع السري).

أما إيلان بابه، وهو أحد رموز هذه المجموعة، فيتحدث باسم المؤرخين الجدد حول حرب العام ١٩٧٣ (حرب يوم الغفران).

ويصرح بابه أن «الهجوم المفاجئ للجيوش العربية في العام ١٩٧٣ أحدث أول خرق في جدار النفاق الأخلاقي وبالإحساس بالرضى الذاتي، وأضاف أن الخسائر التي تعرض لها الجيش الإسرائيلي والفساد الذي مرّ فيه حزب العمل أضعف الشوق الأيديولوجي عند معظم الإسرائيليين».

ويضيف بابه أن الباحثين الإسرائيليين بدأوا بالاعتراف بالرواية التي يطرحها الباحثون الفلسطينيون حول أسباب النزاع بعد الانتفاضة الأولى (١٩٨٧). وأضاف، أن الشكوك ومراجعة الذات تتم بسهولة عندما يحدث فشل أو كوارث (الثورات تحدث بعد خسارة في الحروب). ويبدو أن الانتفاضة الأولى كانت العامل الحاسم. أما حرب أكتوبر فقد فتحت النقاش حول الشؤون الاجتماعية الداخلية، لكن الانتفاضة أجبرت الجمهور الإسرائيلي على الدخول في صراع آخر هو النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني بطريقة مباشرة. وكان الطفل الفلسطيني المسلح بالحجارة ويواجه دبابة إسرائيلية، عكس قصة دافيد وجولييت. ما حدث مس بشريان حساس عند الجمهور، وأجبر الإسرائيليين على الاعتراف بـ م.ت.ف بأنها شريك بالمفاوضات. وساعدت فترة السلام في نمو نقد تاريخي للصهيونية الرسمية.

ولم يكن المؤرخون الجدد هم أول من شكك بالأيديولوجية الصهيونية الرسمية. فالعكس صحيح، فقد ولدت الصهيونية ومعها ولدت الانتقادات، التي وجهت من قبل أبرام لفين وإيلان هليفي ومكسيم روديسن وموشيه سنيه وتمار غوجانسكي – من وجهة نظر ماركسية. وكتب سماحة يلبن حول الأساطير والواقع عند إقامة الدولة وبوعز عبرون انتقد الحركة الصهيونية بشكل شامل. وكثيرة هي المقالات والحوارات التي نشرت على مدار السنوات المعارضة للصهيونية وغيرها، ونضيف إلى هذه القائمة الكتب التي نشرت في الخارج بأقلام كتّاب مرموقين مثل إدوارد سعيد ونعوم شومسكي ونورمان فينكلشتاين

وآخرين.

لكن معظم مؤيدي مابعد الصهيونية والمؤرخين الجدد تجاهلوا الأدب الواسع، وصرحوا أنهم ينتقدون الأبحاث التي كتبها مؤرخون مهنيون، ويعملون وفق أسلوب الاطلاع على آخر المستجدات من دون رؤية أيديولوجية. ويمكن الاكتفاء بالقول إن النفاق هو مرض أكاديمي معروف ومقبول. لكنني أعتقد أن هناك جذوراً عميقة جداً. وبكل بساطة، لا يعتبر الأكاديميون المؤيدون لمابعد الصهيونية أنفسهم بأنهم تابعون لسابقيهم، الذين عارضوا الصهيونية وانضموا إلى الحركات الاجتماعية اليسارية – هناك بعض الاستثناءات. وبعضهم يعتبر نفسه صهيونياً ملزماً بتقديم «الحقيقة» من أجل تصحيح الأخطاء في سياسة الصهيونية في الماضي والحاضر، لكن معظمهم تابعون لليسار الليبرالي وقريبون في تطلعاتهم لمؤيدي مابعد الحداثة. ويعتبرون أن الفكرة الصهيونية فكرة أكل عليها الدهر وشرب ولم تعد صالحة للبحث الحديث كما هو الحال في الخارج. وفي المقابل، «يشعر» مؤيدو مابعد الصهيونية أن الثقافة الإسرائيلية الجديدة أصبحت ثقافة مابعد الحداثة. وأشعر أن بعض هؤلاء معني بعرض التاريخ أكثر من التاريخ نفسه، وهم معنيون بالأساطير والمناسبات أكثر من الحاضر، ويرفضون وصفهم بمعاداة الصهيونية ويشعرون براحة عند تعريفهم بأنهم مؤيدو مابعد الصهيونية.

ماذا يعني مصطلح «بعد» في المجال الصهيوني من ناحية أيديولوجية؟ أو بصورة أدق أية رسالة يبعثها؟ يعتبر مصطلح «بعد» مسايراً للعصر وله علاقة ما بمصطلح ما بعد الحداثة، وفي هذا الاطار يفهم منه أن الصهيونية رواية يمكن إزالتها عن كاهلنا أو على الأقل تفكيكها (Deconstruct) بشكل سريع. ويمكن القول إنها مثل كل الروايات، يمكن تفهمها والعيش معها بسلام. ومابعد الحداثة ليست نظرية عالمية تحارب من أجل أمر معين أو موجة ضد شخص ما، بل هي مصطلح يستسلم له مؤيدوه الذين لا يملكون فكرة مركزية يحاربون من

انتفاضة ٨٧: توتير المسكوت عنه صهيونيا

أجلها، وبالنسبة لهم فإن كل الجهود يجب أن تركز على النص.

ويمكن تفهم مصطلح «بعد» بمفهومه البسيط والمثالي والأخلاقي. وربما تعني بعد أن الصهيونية أمر خاطئ في وقتها، لكنها كحركة انتهت ولم تعد خياراً، ونحن نعيش اليوم في عصر جديد يسمى «عصر مابعد الصهيونية».

بالنسبة لي أعتبر هذا الافتراض خاطئ ولا يتعامل مع الواقع السياسي الإسرائيلي، لأن المضامين الصهيونية للدولة ما زالت سارية المفعول. فمعظم الضفة الغربية محتلة والمستوطنات فيها تتوسع، ويوجد اتفاق بين الحزبين الكبيرين على مواضيع أساسية مثل استمرار السيطرة على الضفة الغربية قدر المكان (٥٠٪ منها) والمحافظة على القدس موحدة (أي استمرار السيطرة على القدس الشرقية). وهذه الأمور تشير إلى استمرار السياسة الصهيونية التقليدية التي تدعو إلى التوسع الدائم. وفيما يتعلق بنجاح هذه السياسة، فإن ذلك مسألة أخرى. لكن الأيديولوجية الصهيونية تعزز يومياً في المدارس والكنس والصحف وفي وسائل الإعلام الإلكترونية، وعند معظم الأحزاب. وللتأكيد على قوة الصهيونية كأيديولوجية وسياسة وتأثيرها على الرأي العام، أقدم مثالاً عن البرنامج السياسي لـ «ميرتس»، التي تقف على يسار الخارطة السياسية وتضم العديد من المثقفين وأصحاب المهن الحرة وأكاديميين (معظمهم من مؤيدي مابعد الصهيونية). ويدور الحديث عن ثلاثة مبادئ من سبعة هي:

١. الصهيونية: هي الحركة الوطنية للشعب اليهودي التي نجحت خلال مائة عام من وجودها في تجميع قسم مهم من الشعب اليهودي في إسرائيل، وحصلت على حق تقرير المصير في «دولة إسرائيل» ذات السيادة. وتتطلع «ميرتس» إلى تجديد الحركة الصهيونية وتحويلها إلى عنصر مركزي يقاوم الإرباك الذي يهدد وجود الشعب اليهودي في المنافي.

٢. ترى «ميرتس» بالهجرة إلى إسرائيل وتجميع معظم الشعب اليهودي فيها وتعزيز الهوية اليهودية على أسس التعددية كدور مركزي للحركة الصهيونية في المستقبل.

٣. تعتبر العلاقة بين إسرائيل والطوائف اليهودية عنصراً مركزياً لضمان وجود الشعب اليهودي.

ويبدو أن الصهيونية لن تختفي، والادعاء بأنها انتهت هو تهرب من الموضوع. والتهرب غير موجود في التأريخ أو حتى في المجال الأيديولوجي. وفي هذا المجال، فإن مابعد الصهيونية موجه ضد التأريخ الصهيوني. ويمكن القول إن مؤيدي مابعد الصهيونية، أو على الأقل معظمهم معادون للصهيونية، لكنهم لم يظهروا بعد.

ويدعي بعضهم أنهم لا يستطيعون معاداة الصهيونية لأنهم ولدوا في البلاد وهم بالنتيجة أبناء الصهيونية، وهذا ادعاء خاطئ وغير مقنع حيث لا يوجد فرقاً بين الصهيوني والإسرائيلي. ويمكن أن تكون إسرائيلياً وتنتقد وترفض حتى الصهيونية. فالأميركي من ليدا غير ملزم بالتعاطف مع الذين قتلوا ودمروا الهنود الحمر، أو أن يؤيد الذين بنوا سعادتهم على الأمر الواقع. والحال نفسه ينطبق على الدول الأخرى التي يوجد فيها مهاجرون استغلوا المجتمعات المتخلفة بصورة وحشية.

وتحاول الأيديولوجيا الصهيونية خلق هوة مطلقة بين الصهيوني والإسرائيلي، وتمكين من يعنيهم الأمر بالقول إن من هو غير صهيوني هو ضد الدولة!

وحق وجود إسرائيل ليس موضوع بحثناً، فمعظم الدول العربية والفلسطينيين اعترفوا بهذا الحق. لكن السؤال هنا هو، كيف ينظر الإسرائيلي إلى ماضيه. وفي هذا المجال لا يوجد شك أننا نواجه مشكلة حول كيفية مواجهة الماضي والتغلب عليه. وهناك صعوبات في بناء وعي ذاتي تاريخي واقعي أفضل من النفاق الميت حول ماضينا. ولهذا السبب فإن مابعد الصهيونية – ما زالت في مهدها وهي مشروع أكاديمي – تساهم مساهمة مهمة في الوعي الجماعي للإسرائيليين. الأمر الذي يؤدي إلى ردود فعل مذهلة.

الأهم من كل ذلك هو الربط السياسي في النقاش حول مابعد الصهيونية، وربما تستطيع إسرائيل التوصل إلى اتفاقات ضعيفة أو سلام بارد مع الفلسطينيين في الاطار الصهيوني. لكن السلام الحقيقي أي التسليم والمصالحة – يتطلب منا اعترافاً حقيقياً بماضينا.